# المواجهة العثمانية ـ البرتغالية في القرن السادس عشر

أمين توفيق الطيبي

منذ استقلال البرتغال في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، والبرتغاليون يناصبون ـ بروحٍ صليبية ـ المسلمين في الأندلس والمغرب أشد العداء. وبعد عدوانهم على مدينة سبتة المغربية واحتلالهم لها العام 1415م وبداية حركة الكشوف الجغرافية حول سواحل القارة الافريقية استهدف البرتغاليون محاربة المسلمين أنّى كانوا وكسر احتكارهم لتجارة التوابل مع الشرق. ولما وصل فاسكو داغاما إلى كاليكوت على ساحل مليبار في صيف 1498، كان من حسن حظ البرتغاليين أن الممالك الإسلامية في منطقة المحيط الهندي كانت تعاني ضعفاً شديداً ـ المماليك في مصر، والتيموريون في فارس، وسلاطين دلهي الغوريون ـ كما أنه لم يكن لأي من الممالك الإسلامية في الهند أسطول حربي يُذكر.

ولما تم للبرتغاليين ـ عن طريق القوة الغاشمة ـ القضاء على احتكار المسلمين لتجارة التوابل في المحيط الهندي وما وراءه، عملوا على فرض نظام احتكار من جانبهم، فأعلنوا أن الاتجار بعدد من السلع، أهمها التوابل، احتكار للتاج البرتغالي، فأصبح لزاماً على أصحاب المراكب حمل تراخيص تعرف بالبرتغالية باسم Cartaz (قرطاس) ـ يشير إليها المؤرخ العربي الهندي المعاصر زين الدين المجري تارة بالأوراق وتارة بالرُقعات ـ في مقابل دفع رسم من قبل صاحب المركب، وشريطة دفع رسوم كذلك على البضائع المشحونة. وأصبحت المراكب التي لا تحمل هذه الأوراق ـ وأحياناً حتى التي تحملها ـ عرضة للمصادرة أو الإغراق من قبل السفن البرتغالية إذا كان

التجار من المسلمين[1].

لما تمركز البرتغاليون وبنوا قلاعاً لهم في عدد من مدن ساحل مليبار، خشي سلطان كُجرات بشمال غرب الهند خطر البرتغاليين، فاستغاث بسلطان مصر قانصوه الغوري الذي أرسل أسطولاً إلى المياه الهندية بقيادة الأمير حسين التركي حيث أوقع هزيمة بأسطول برتغالي بالقرب من ميناء شيول (Chaul) في شهر كانون الثاني (يناير) العام 1508م، إلا أن نائب ملك البرتغال في الهند ـ فرانشيسكو دالميدا ـ أوقع في العام التالي (شباط/فبراير 1509) هزيمة كبرى بالأسطولين المصري والكجراتي قبالة ديو (Diu) وكانت معركةً حاسمةً قُضي فيها على الأسطول المصري.

وعلى أثر هذا الانتصار قام أفونسو دي البوقرق (Alpuquerque)، الذي خلف دالميدا في الولاية، باحتلال كووه (Gou) واتخاذها مقراً إدارياً (1510م)، وشبه جزيرة الملايو (1511م). وحاول التحكم بالتجارة عبر الخليج العربي باحتلاله جزيرة هرمز عند مدخل الخليج، ومحاولته أخذ عدن عند مدخل البحر الأحمر. وفي مصر ازدادت الحالة الاقتصادية سوءًا بسبب تحويل البرتغاليين تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وتعذّر بناء أسطول جديد لمواجهة خطر البرتغاليين المتفاقم في منطقة البحر الأحمر. وجعل خطر البرتغاليين في البحر الأحمر السلطان قانصوه الغوري ينشد عون الأتراك العثمانيين، فتلقى منهم في شهر كانون الثاني (يناير) العام 1511 أربعمئة مدفع وأربعين قنطاراً من البارود، كما حصل منهم في العام التالي على الأخشاب والقار والحديد لبناء السفن في السويس، والتحق ـ كما يبدو ـ عدد من غزاة البحر الأتراك بخدمة الأسطول المملوكي. وكان البرتغاليون آنذاك يخططون للاستيلاء على عدن ثم على جدة والأماكن المقدسة في الحجاز، وللوصول إلى النجاشي في الحبشة والتحالف ضد المسلمين.

(1) Boxer, C. R., The Portuguese Serborne Empire, Penguins 1973, p. 48.



جاء في التعليمات الصادرة عن ملك البرتغال مانويل الأول لنائبه في الهند فرانشيسكو دالميدا ما يلي بشأن البحر الأحمر: «يبدو لنا أنه لا شيء يخدمنا خير من أن يكون لنا حصن عند مدخل البحر الأحمر أو بقربه، إذ منه يمكن التأكد من عدم وصول أي توابل إلى سلطان مصر، كما أن جميع من في الهند سوف يتخلّون عن فكرتهم الخاطئة بأنهم يستطيعون المتاجرة مع غيرنا... فعليك أن تجمع سفننا في كولم (Quilm) ـ بأقصى جنوب الهند ـ وسيكون من دواعي رضانا أن تتوجه منها إلى مدخل البحر الأحمر»[1].

استهدف البوقرق منذ توليه منصب الوالي البرتغالي في الهند خلفاً لدالميدا احتلال عدن لوقف التجارة النشطة بينها وبين كجرات ومدن ساحل مليبار بعد أن تبين أن احتلال البرتغاليين جزيرة سقطرة العام 1507 فشل في تحقيق هذه الفرص. ولما قام بمهاجمة عدن العام 1513م أخفق في الاستيلاء عليها بفضل مقاومة أهلها ومناعة أسوارها، فعبر مضيف باب المندب، وكان أول برتغالي يدخل على رأس أسطول إلى البحر الأحمر. ولعل البوقرق كان يأمل في أخذ موقع آخر داخل البحر الأحمر يُغنيه عن عدن. واضطر قبل العودة إلى الهند أن يمضي شهرين في جزيرة كران بسبب تبدل اتجاه الرياح قبل أوانها. ويقال إن البوقرق كان ينوي الإغارة على المدينة المنورة وحمل رفاة النبي صلى الله عليهم وسلم، كما كان يخطط لتدمير مصر بتحويل مجرى نهر النيل إلى البحر الأحمر، وذكر في خطاب بعث به إلى ملكه في كانون الأول (ديسمبر) 1513م أنه إذا دُمر أسطول المماليك، فإن السلطان لن يستطيع بناء أسطول آخر، وأنه ما على البرتغاليين بعد تدمير الأسطول إلا أن يختاروا ميناء جدة وأن يقوموا بتحصينه وإقامة قاعدة بحرية فيه وعندئذ يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون في المنطقة وتجارتها.

كان البوقرق أكثر نجاحاً في الخليج منه في البحر الأحمر، فقبيل وفاته

(1) Diffie, B. W. ml Winuis, G. D., Foundations of the Portuguese Empire, University of Minneston Press 1978, p. 227.

سنة 1515م احتل جزيرة هرمز عند مدخل الخليج، واحتفظ البرتغاليون بالسيطرة على هرمز إلى العام 1622 حينما طردتهم منها قوة فارسية تساندها سفن حربية انكليزية قدمت من سورت (Surt) على ساحل كجرات. وفي العام 1516، أبحر في البحر الأحمر صوب كجرات آخر وأكبر أسطول مصري بقيادة تركي هو سلمان ريس، يرافقه الأمير حسين الذين كان قد قاد الأسطول في معركتي شيول وديو (1508، 1509)، فتوجه من كووه للقائه أسطول كبير بقيادة لوبو شواريس دي البيرجاريا، ولم يقع تصادم بين الأسطولين لأن سلطان مصر المملوكي قانصوه الغوري كان طلب إلى سلمان ريس التوقف في عدن لتأديب أميرها المتمرد مرجان الظافري الذي صمد في وجه المهاجمين بفضل أسوار عدن وتحصيناتها، فاضطر سلمان إلى الانسحاب من البحر الأحمر بعد أن تكبد خسائر كبيرة. وفي هذه الأثناء، أوقع الأمير حسين هزيمة بحاكم اليمن، فأصبح بذلك للمماليك موطىء قدم على ساحل اليمن.

ولما وصل القائد البرتغالي البيرجاريا إلى عدن سنحت له فرصة مواتية لاحتلال المدينة، إذ قبل الأمير مرجان أن يبني البرتغاليون قلعة في المدينة إذا هم تعهدوا بمساعدته ضد هجوم جديد كان يتوقعه من جانب المماليك، إلا أن القائد البرتغالي مضى في البحر الأحمر في أثر الأسطول المصري. ولم يكن يعلم بأن الأنباء كانت تناهت إلى قائد الأسطول المصري بهزيمة السلطان قانصوه الغوري على أيدي الأتراك العثمانيين. وعلى الأثر، تمرد الأمير حسين مع جانب من الأسطول، وأبحر إلى جدة حيث تبعه القائد سلمان وقبض عليه، وبعث به إلى مصر مع تعليمات لقائد السفينة بإعدامه قبل الوصول إلى مصر، ولو أن المعبري يقول أن حسيناً أمسكه سلطان الحجاز الشريف بركات وغرقه في البحر جزاء أفعاله باليمن[1].

ويتحدث المعبري عن الحملة البرتغالية الفاشلة إلى البحر الأحمر فيقول أن الافرنج «خرجوا في محرم سنة 1023 (كانون الثاني/يناير 1517م) من كووه

(1) المعبري، زين الدين بن عبد العزيز: تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين، تحقيق وتعليق أمين توفيق الطيبي، طرابلس الغرب 1986، ص 85.



باستعداد عظيم في 28 مركباً قاصدين بندر جدة المحروسة ليتملكوها، ووصلوا إلى البندر، فتحيّر من ذلك المسلمون وخافوا خوفاً شديداً. وكان الأمير سلمان الرومي (أي التركي) فيها ومعه من العساكر مئتان والغربان (المراكب الحربية) التي جهزها الغوري إلى مليبار لحربهم متروكة فيها، فرماهم أهلها بالمدافع من البر فأصابت بعض مراكبهم، فرفعوا بشراعهم وأرسوا فوق العلم خوفاً من المدافع ثم شردوا... ثم إن الملاحين توقفوا في كمران لانقطاع الموسم الهندي، ثم رجعوا إلى كووه خائبين»[1].

بعد انتصار السلطان العثماني سليم الأول على الممالك في مرج دابق شمالي مدينة حلب (24/ 8/ 1516)، واحتلاله مصر في العام التالي، أمضى خمسة شهور في القاهرة استقبل في أثنائها ابن شريف مكة بركات الذي وصل للإعراب عن خضوع والده وولائه للسلطان العثماني، كما كانت الحال من قبل مع السلطان المملوكي. كما أن الوالي المملوكي في اليمن ـ ومقره في زبيد ـ اعترف بسيادة السلطان سليم الذي أقرّه في منصبه.

ورث سلاطين العثمانيين من المماليك مهمة حماية البحر الأحمر ومداخله من أطماع البرتغاليين الذين كانوا تحالفوا مع خصمهم الشاه اسماعيل الصفوي.

واتخذ العثمانيون بعد استيلائهم على مصر مباشرة التدابير لطرد البرتغاليين من البحر الأحمر. ولما عاد إلى مصر سلمان ريس وكان الأتراك قد أرسلوه لخدمة المماليك ومساعدتهم قبل العام 1513م ـ التحق فوراً بخدمة السلطان العثماني. وأوصت مذكرة تنسب إلى سلمان ريس بضرورة الاحتفاظ بأسطول دائم في السويس للحيلولة دون دخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر وقطعهم التجارة عبره مع مصر. واحتل العثمانيون سواكن سنة 1520م بعد أن أحبطوا محاولة البرتغاليين بناء حصن لهم فيها. وتمركزت حامية عثمانية في اليمن، وأبحر أسطول عثماني في المحيط الهندي وحاول الاستيلاء على عدن.

(1) المصدر نفسه، ص 93.

بذل العثمانيون جهوداً كبيرة لبناء أسطول قوي لمواجهة التحديات في البحر المتوسط وتحديات البرتغاليين في المياه الشرقية، فأنشئت في خليج القرن الذهبي في استنبول دار صناعة كبرى جُلب للعمل فيها بناة السفن والبحريون، من بينهم قائد أسطول المماليك في البحر الأحمر سلمان ريس ومن معه من مقدمي البحر والصناع. وبنهاية حكم السلطان سليم (ت 1520م)، توافر للعثمانيين أسطول حديث كبير، مما أقلق أعداءهم في البحر المتوسط والمحيط الهندي.

أصبحت للعثمانيين بعد السيطرة على مصر مصلحة مباشرة في الدفاع عن البحر الأحمر، إلا أنهم شغلوا في السنوات الأولى بمشاكل البلقان، وقام الصدر الأعظم ابراهيم باشا أثناء زيارته للقاهرة بإعادة تنظيم إدارة الأسطول في السويس، واستحدث قيادة بحرية مستقلة للبحر الأحمر، وخصص لها جانباً من رسوم الجمارك المصرية، فأصبح الأسطول جاهزاً للعمل ضد البرتغاليين في الثلاثينات من القرن السادس عشر بعد أن استولى السلطان سليمان القانوني على العراق وتهيأت للعثمانيين الفرصة للإحاطة بالعدو البرتغالي من مياه الخليج والبحر الأحمر. وصدرت الأوامر لوالي مصر سليمان باشا بإعداد أسطول السويس، فنهض بالمهمة العام 1537م وفرغ منها في ربيع العام التالي مستعيناً بعدد من البحريين البنادقة كانوا في الاسكندرية.

في سنة 1527م استنجد صاحب كاليكوت وسلطان كجرات بهادر شاه بالعثمانيين لوضع حد لاعتداءات البرتغاليين المتواصلة، وتلبيةً لهذه الاستغاثة أمر السلطان سليمان نائبه في مصر سليمان باشا بقيادة حملة لنجدة السلطان بهادر شاه بارحت السويس في شهر حزيران (يونيو) العام 1538. وعند مروره باليمن، استغل سليمان باشا المنازعات بين الأمراء المحليين واستولى على المناطق الساحلية، فزود الامبراطورية العثمانية بقواعد جديدة متقدمة لحماية البحر الأحمر من هجمات البرتغاليين في المستقبل. ثم استولى على عدن بعد أن غدر بأميرها مرجان وقتله ونصب والياً عثمانياً فيها. وفي أوائل تشرين الأول (أكتوبر) 1538م وصل الأسطول قبالة ديو وشرع في محاصرة الميناء



وقصف قلعة البرتغاليين بالمدافع، ثم انسحب الأسطول العثماني فجأة في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وذكرت عدة أسباب لتبرير هذا الانسحاب، منها أن السلطان بهادر شاه كان قد هلك على أيدي البرتغاليين غدراً قبيل وصول الأسطول العثماني، ورفض خلفه تزويد الأسطول بالمؤن، وارتاب في نوايا الأتراك بعد ما حل بأمير عدن على أيديهم. ويقول المعبري أنه في سنة 944هـ/1538م وصل «سليمان باشا وزير السلطان سليمان شاه... في استعداد عظيم تام في نحو مئة من الغربان والبرشان وغيرهما إلى بندر عدن وقتل سلطانها.. وجعلها في قبضته، ثم وصل إلى جرزات (كجرات) فشرع في حرب ديو وكسر أكثر القلعة المدافع العظام السلطانية، ثم ألقى الله هيبة الافرنج في قلب سليمان باشا فرجع من غير فتح إلى مصر ثم إلى الروم (الأناضول)»[1]. وعلى أثر انسحاب الأسطول العثماني من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر العام 1538م، أقلع أسطول برتغالي يضم أكثر من سبعين سفينة سنة 1541م بقيادة استيفاو داغاما صوب البحر الأحمر بغية تدمير الأسطول العثماني إن أمكن. ووصل هذا الأسطول إلى السويس، وحاول البرتغاليون ـ من دون جدوى ـ القيام بشبه غارة «كوماندوز» على سفن الأسطول العثماني الراسية هناك.

كانت آخر محاولة قام بها البرتغاليون لاحتلال عدن سنة 1547م حينما استولى عليها الشيخ علي بن سليمان الطولقي وطرد منها الحامية التركية. فقد أرسل البرتغاليون أسطولهم بحجة مساعدة الطولقي ضد الأتراك، إلا أن الأتراك لم يلبثوا أن استردوا عدن حينما وصلت قطع من الأسطول البرتغالي إلى بعض المراسي القريبة من عدن[2].

ازدادت قوة العثمانيين كثيراً في المياه الشرقية منذ استيلائهم على

(1) المصدر نفسه، ص 104. والبرشان جمع «برشة» ـ من البرتغالية Barcha ـ وهي سفينة كبيرة لحمل الركاب والبضائع. ويذكر المعبري برشة بها ألف راكب.
(2) شهاب، حسن صالح: فن الملاحة عند العرب، بيروت 1982، ص 48.

البصرة سنة 1546م، وعدن وجنوب اليمن سنة 1538م. وفي البصرة أنشأ العثمانيون أسطولاً صغيراً وداراً لصناعة السفن، ومن قاعدتهم الجديدة في البصرة نشطت سفنهم الحربية في مياه الخليج وفي مدخله عند جزيرة هرمز التي كان البرتغاليون احتلوها وبنوا قلعة فيها منذ العام 1515م. ومع أن العثمانيين استولوا على القطيف (1550م) والبحرين (1554م) إلا أنهم فشلوا في أخذ هرمز سنة 1552م.

أرسل العثمانيون بعض سفنهم الحربية إلى المحيط الهندي أكثر من مرة في منتصف القرن السادس عشر، وكانت تغزو مراكب البرتغاليين وتظفر بالغنائم.

إن استيلاء الأتراك العثمانيين على عدن العام 1528م ـ وتحكمهم بالتالي بمدخل البحر الأحمر ـ كان من شأنه إنهاء ما كان يديره البرتغاليون منذ أيام البوقرق من خطط تجاه منطقة البحر الأحمر بكاملها، ولم يلبث أن أصبح الأسطول العثماني في البحر الأحمر قوة كبيرة كان على رأسه في منتصف القرن السادس عشر واحد من أعظم قادة البحر العثمانيين في القرن السادس عشر، ألا وهو بيري ريس (ت 1554م). ففي العام 1547 عُين بيري ريس قائداً أعلى لأسطول المحيط الهندي، وأخذ يقوم بحملات سنوية في المحيط. ففي العام 1551 أبحر من السويس على رأس أسطول كبير قوامه 23 سفينة وهاجم مسقط وطرد البرتغاليين منها، ثم حاصر لبضعة أسابيع القلعة البرتغالية في هرمز من دون أن ينجح في أخذها، فتوجه إلى البصرة حيث رست سفن الأسطول. وبعد وفاة بيري ريس خلفه في قيادة أسطول البحر الأحمر سيدي علي ريس الذي كُلِّف بتوطيد سيطرة العثمانيين البحرية في الخليج، فأبحر من البصرة وفقد بعض سفنه في قتال البرتغاليين قبالة هرمز (1554م)، ثم تكبّد خسائر كبيرة في السفن بسبب عاصفة بالقرب من ساحل مكران الإيراني.

سعى البرتغاليون إلى الاتصال بمن كان يُعرف في أوروبا في أواخر القرون الوسطى باسم بريستر جون (Prester John)، الذي حسبه الأوروبيون



ملكاً مسيحياً كبيراً في مكان ما من آسيا، وذلك بغية التحالف معه ضد المسلمين. ولما وصل البرتغاليون إلى مياه المحيط الهندي رأوا في نجاشي الحبشة ضالتهم المنشودة، فحاولوا الاتصال به والتحالف معه ضد المسلمين. ففي العام 1541، أنزل البرتغاليون إلى البر قوة قوامها 400 رجل بقيادة أحد أبناء فاسكو داغاما ـ كريستوفاو Cristovao ـ لنصرة ملك الحبشة في حربه ضد الزعيم الصومالي أحمد بن ابراهيم الغازي، فبادر الوالي العثماني في زبيد باليمن إلى مد هذا الزعيم ببعض المدافع وبقوة من الأتراك من حملة البنادق قوامها ألف رجل مما مكن من إيقاع هزيمة بقوات ملك الحبشة وحلفائه البرتغاليين، وهُزم كريستوفاو وهلك ومن معه. وعلى الأثر، أشار الوالي العثماني باليمن ازدمير باشا على السلطان العثماني سليمان بتجهيز حملة إلى الحبشة، إذ إن السيطرة على الساحل الافريقي للبحر الأحمر قرب باب المندب سيكون من شأنها تعزيز حماية البحر الأحمر ضد هجمات البرتغاليين. فعهد السلطان سليمان إلى أزدمير باشا بإعداد حملة في مصر لهذا الغرض قادها أزدمير باشا أولاً إلى بلاد النوبة، ثم توجه إلى ساحل البحر الأحمر ماراً بسواكن، فاستولى على مصوّع سنة 1557م، وانتزع زيلع بشمال الصومال من أيدي البرتغاليين تحوطاً من قيام تحالف فعال بين نجاشي الحبشة وبين البرتغاليين. ولما توفي أزدمير باشا سنة 1559م كان قد ترك للسلطان سليمان ولاية جديدة على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر عُرِّفت باسم «الحبش» اتخذ وإليها مصوّع مقراً له.

وخلاصة القول أنه بفضل قوة العثمانيين البحرية في البحر الأحمر واحتلالهم عدن سنة 1528م، سلمت منطقة البحر الأحمر من أخطار البرتغاليين وأطماعهم، وكانت تتمثل في تهديدهم للبقاع الإسلامية المقدسة في الحجاز، وسعيهم إلى التحالف مع ملك الحبشة ضد المسلمين، والعمل على تعطيل تجارة المسلمين مع الشرق لو قُدّر لهم احتلال عدن والسيطرة على مدخل البحر الأحمر.

إن بناء العثمانيين في السويس لأسطول قادر على مجابهة البرتغاليين في

البحر الأحمر وما وراءه اقتضى مصاريف ضخمة، إذ إن الأخشاب والمدافع كان يترتب نقلها براً إلى السويس، ومع ذلك، وفضلاً عن قلة الموانىء الصالحة على ساحل الجزيرة العربية، فإن الأتراك العثمانيين حققوا قدراً لا يستهان به من النجاح، وبد واضحاً في منتصف القرن السادس عشر بأنه لم تكن لدى البرتغاليين القوة الكافية للتحكم التام بتجارة المحيط الهندي. واستطاع العثمانيون ـ بفضل سيطرتهم على مياه البحر الأحمر ـ أحياء مسالك التجارة الدولية القديمة عبر الأراضي المصرية. وانتعشت من جديد التجارة المجزية بتوابل الشرق وسلعه عبر البحر الأحمر إلى مصر. ففي العام 1554م، اشترى تجار البندقية وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل في الاسكندرية. وأدى نشاط الأسطول العثماني في المياه الشرقية إلى حدوث أزمة أكثر من مرة في سوق التوابل بلشبونة. ووصلت إلى الاسكندرية في حدود العام 1564م كميات من التوابل تساوي ـ إن لم تُفَق ـ الكميات التي كانت تصل عندئذ إلى العاصمة البرتغالية لشبونة عن طريق رأس الرجال الصالح.